

العنوان:	عبدالله كنون والثقافة الوطنية في عهد الحماية
المصدر:	مجلة الأزمنة الحديثة
الناشر:	عبدالله البلغيتى العلوي
المؤلف الرئيسي:	بوحسن، أحمد
المجلد/العدد:	ع10
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2015
الشهر:	خريف
الصفحات:	101 - 108
رقم MD:	897598
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الأدباء المغربة، كنون، عبدالله، التراجم، الثقافة الوطنية، الهوية المغربية، النسق الثقافي، العصر الحديث
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/897598



عبد الله كنون والثقافة الوطنية في عهد الحماية

أحمد بوحسن

جامعة محمد الخامس -الرباط

استهلال

يحاول هذا العرض أن يعالج موضوع الهوية الوطنية في المغرب في عهد الحماية من منظور المؤرخ الأدبي عبد الله كنون. ذلك أن الحماية قد مست الكيان المغربي المادي والرمزي، فحاول المثقفون المغاربة مواجهة ذلك، وعبروا عنه في كتاباتهم الدينية والسياسية والفكرية والتاريخية والأدبية... . وكانوا يسعون بذلك إلى المحافظة على الذات المغربية في الزمان والمكان بكل مكوناتها التاريخية والفكرية والدينية والثقافية المختلفة التي زعزعها الاستعمار.

ولإبراز جانب من تعامل الذات المغربية المثقفة مع المستحدثات المادية والفكرية للمستعمر، سنتناول هنا تعامل مثقف مغربي جمع بين المعارف الدينية والأدبية والتاريخية والفكرية، هو العلامة عبد الله كنون، حيث بدا من الذين أثاروا مسألة الهوية الوطنية في المغرب، وكرس لها كتابات كثيرة ومختلفة، ربما أهمها تلك التي حاول فيها أن يجمع بين المعرفة التاريخية والمعرفية الأدبية والفكرية.

والهدف من هذا العرض هو تشييد التصور الهوياتي لعبد الله كنون في مرحلة الحماية، بحيث كان ذلك التصور محكوماً بزمن الحماية وبالمستعمر، بل كان ذلك عاملاً مُوجّها في بناء الهوية المغربية كما شيدها في بعض أعماله التاريخية والأدبية. بالإضافة إلى عوامل أخرى تتعلق بزمن القومية العربية، والجامعة الإسلامية، وبالمحيط المغربي الثقافي والفكري والتربوي في عهد الحماية.

ومن بعض النتائج التي نتوخى الوصول إليها في هذا العرض، هو الكشف عن طريقة البحث في مراحل التاريخ المغربي من أجل إثبات الممتلكات المغربية الرمزية الفكرية والتاريخية والأدبية والدينية التي كانت جُماع الهوية التي كان يريد تشييدها؛ إذ غالباً ما كان يلجأ إلى عملية الانتقاء داخل الأزمنة المغربية المختلفة. كما نتوخى أيضاً مساءلة هذا النوع من التشييد، أملاً في الوصول إلى إبراز علاقة الزمن الاستعماري بتشييد الهوية المغربية، والنتائج المترتبة على ذلك، ومن ثم فتح آفاق جديدة للبحث في الثقافة الوطنية المغربية.

عبد الله كنون وتاريخ الأدب

من الصعب الحديث عن العلامة عبد الله كنون (1908-1989) في مختلف جوانبه الفكرية والعلمية والدينية والثقافية، لأنه يجمع بين مختلف المعارف والفنون التي كانت تميز المثقف المغربي في عهد الحماية وقبلها، وغالباً ما كان يوصف بالعالم والفقيه والأديب. وقد أنتج في مختلف تلك الحقول المعرفية خلال حياته. ولعل الجانب الذي أثار اهتمام المهتمين بالدراسة التاريخية والثقافية والسياسية والأدبية هو ما لامس من إنتاجاته تلك الجوانب، والتي كان لها تأثير تاريخي وسياسي وثقافي في عهد الحماية. وغالباً ما توصف تلك الانتاجات بالكتابات التاريخ أدبية. ولا يجادل أحد في أهمية ودور تلك الكتابات، وبخاصة كتابه «النبوغ المغربي في الأدب العربي» (1938)، والإنتاجات المكملة له أو القريبة منه، وهي كثيرة. كما أن هذا الكتاب قد حظي باهتمام كبير في المغرب والعالم العربي وفي أوساط المستشرقين كذلك. ولهذا سأركز عرضي حول خطاب تاريخ الأدب عند عبد الله كنون، والسياق التاريخي والثقافي الدي ظهر فيه، لأنه يمثل بؤرة خطابه عن الثقافة الوطنية

المغربية في عهد الحماية.

ويتميز خطاب المؤرخ الأدبي بالجمع بين فعالية الأدب وفعالية التاريخ. هو اسم مركب يشتغل في دائرة الأدب وهي تدور في فلك الزمن. الأدب، إذن، فعالية متحركة مستقلة تدور في فلك الزمن أو التاريخ؛ هو مستقل بذاته، ولكنه مرتبط بالتاريخ في نفس الوقت. ولهذا يكون المؤرخ الأدبي منتبهاً إلى الوضع الداخلي الخاص بالنص الأدبي، ومنتبهاً في نفس الوقت إلى الوضع الزمني /التاريخ لهذا النص. إن المؤرخ الأدبي يشبه لاعب كرة القدم؛ عليه أن يراقب الكرة ومدار دفعها وتوجهها عندما يريد أن يلقيها في هذا الاتجاه أو ذاك.

والغاية من هذا المدخل هو إثبات دور تاريخ الأدب في تأسيس دعائم الثقافة الوطنية المشبعة بالروح الكفاحية في مراحل تاريخية، مثل مرحلة الاستعمار التي عاش فيها عبد الله كنون الذي نتحدث عنه. ومن الباحثين في التاريخ وتاريخ الأدب الذين أدركوا البعد الوطني والكفاحي في تاريخ الأدب الباحث الفرنسي روبر إسكاربيت Robert Escarpit الذي يرى: «أن كل التواريخ الأدبية قامت على دعائم وطنية كفاحية».[1]

السياق التاريخي والثقافي لإنتاجات عبد الله كنون

يعتبر عبد الله كنون من الجيل الثاني في القرن العشرين بعد الجيل الأول الذي مثله جيل أبي شعيب الدكالي ومحمد ابن العربي العلوي ومحمد بن عبد الكريم الخطابي الذين كانوا يمثلون، في الغالب، نظيراً لمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي في المشرق العربي، والذين وضعوا اللبنات الأولى للسلفية المغربية في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وأن الذي يميز الجيل الأول المخضرم الذي عاصر مغرب ما قبل الحماية ومغرب الحماية في بدايات القرن العشرين، هو ثقافته العربية الإسلامية التي كانت تُنَمّطها المؤسسة الثقافية المغربية الكبرى، وهي القرويين والمدارس الأخرى الدينية والقرآنية المنتشرة في أنحاء المغرب. كما يتميز هذا الجيل الأول بمعايشته لدخول الأجنبي إلى البلدان المغاربية؛ الجزائر 1830، وتونس 1881، وليبيا 1912... وما خلفه هذا التدخل في البلدان العربية في المشرق العربي، وبخاصة في مصر سنة 1798. كما عايش هذا الجيل ثقافة ما يعرف بثقافة النهضة العربية الحديثة مع بدايات القرن التاسع عشر في المشرق، وآثارها على المغرب، حيث أصبح النموذج المشرقي هو قبلة الأنظار في الثقافة العربية النهضوية، والتي كان المغرب ينظر إليها ويتزود بإنتاجاتها الفكرية والدينية والسياسية والفنية والأدبية. ويمكن أن نميز في مرحلة الحماية في المغرب ثلاثة أنساق ثقافية أساسية، نذكرها فيما يلي:

أ- النسق الثقافي المغربي التقليدي

كان النسق الثقافي المغربي قبل الحماية يعرف انسجاماً من حيث بنيته التعليمية والتربوية والدينية والقيمية، رغم التفاوتات الكبرى بين مناطقه وفئاته. فقد كان النسق التعليمي التقليدي الذي يتكون من ثقافة الكتاب والمدارس الدينية والزوايا وبعض المسامرات والمناظرات الخاصة، هو الذي يشكل بنية الثقافة المغربية للطالب والعالم والفقيه والأديب. ومنتهى درجة هذه النسق يتوج بجامعة القرويين ثم كلية ابن يوسف وبعض المعاهد الدينية فيما بعد.

بقي هذا النسق الثقافي سائداً في المغرب لعدة قرون بعد سقوط الأندلس وانكماش المغرب بعد معركة وادي المخازن في القرن السادس عشر. وسادت ثقافة تقليدية قائمة على التقاليد الإسلامية، ولكنها مشبعة بالطقوس الدينية الشعبية، أو ما يعرف بالإسلام الشعبي الذي ينهل من بعض المعتقدات الصوفية والطرقية والخرافية أحياناً.

كان هذا النسق الثقافي التقليدي يتعزز بما يقدمه له النسق المشرقي في الرحلات المختلفة إلى المشرق في مناسبات الحج أو الحملات أو الهجرات المتفاوتة التي كانت تتجه من المغرب إلى المشرق، وبخاصة بعد دخول الأوروبي إلى البلدان المغاربية منذ العقود الأولى من القرن التاسع عشر. وهناك من هاجر إلى المشرق نهائياً بعد دخول الاحتلال الفرنسي إلى البلدان المغاربية.

ورغم أن النسق الثقافي التقليدي المغربي لم يقتصر في صلاته قبل الحماية بالمشرق فقط، لأنه قد عرف رحلات تجارية وعلمية، أحياناً، وسفاريات إلى أوروبا

الغربيـة، فإنـه لـم يكـن مهيـأ لتقبـل النسـق الثقافي الأوروبي الحديث، ولم يستفد منه كثيراً بالمقارنة مع النسق المشرقي، بعامل الدين واللغة والثقافة.

لا شـك أن عوامـل تاريخيـة ودينية وثقافيـة هي التي لعبت دوراً أساسياً في عدم التعامل مع النسق الثقافي الأوروبـي لمـا قبل الحماية. ومـن الصعب على مثقف فقيـه وعالم وأديب مغربي لما قبل الحماية أن يتفاعل بشـكل إيجابي مع النسـق الأوروبي الذي لم يسمح له نسقه التعليمي والتربوي والديني والثقافي أن يتعامل معه، أو يفهمه في صورته الأوروبية. وحتى إذا حصل وتعامـل معـه، فإنه يعتبره دونياً ويختلف عن نسـقه، فيبعده عن نفسه، ويقرأه بنسقه المغربي التقليدي ولا يكون له أي تأثير عليه.

يمكـن القول إن النسـق المغربي التقليـدي المتوارث إلى أواخر القرن التاسـع عشـر وبدايات عهد الحماية (1912)، كان نسـقاً ثقافياً صلباً منسـجماً إلى حد ما، من حيث لغة هذا النسق في مستواه المعياري (العالِم)، هـو اللغـة العربيـة، بالإضافـة إلـى اللغـة الأمازيغية والدارجة المغربية في مسـتوياته الأخرى العامة. وأن هذا النسق هو الذي يشكل جزءاً هاماً من صلب الهوية المغربية، والذي سـتعززه باستمرار الدولة المغربية، بل يشـكل دعامة دولة المخزن، وأن أساسـه الشـعبي الـذي يطول فئة عريضة من سـكان المغرب، وبخاصة فـي البـوادي. ولهذا تعتبر البـوادي حاضنة لنوع من النسق التقليدي العتيق.

ب- النسق الثقافي الأوروبي الحديث

سيعرف النسـق الثقافي المغربي تمييزاً بين نسقين، أحدهما نسـق مغربي تقليدي، وآخر نسق حديث، لما دخـل النسـق الأوروبي، الفرنسـي والإسـباني، بحكم الحماية الفرنسـية والإسـبانية، إلى النسق المغربي، وبذلك سيتميز النسقان، ويوصف المغربي بالتقليدي والأوروبـي بالحديـث. وسـتظهر بوادره فـي مختلف مناحـي الحياة وعلـى الأرض وفي نمـط العيش وفي اللبـاس وفـي وسـائل النقل وغيرها. وبحكـم وجود نسـق التعليميـن الفرنسـي والإسـباني وثقافتيهما، بـدأ يتجـاوب جزء مـن الشـباب المغربي الـذي درس في هذا النسـق الأوروبي، رغم محدوديته، واقتصاره في البداية على النخـب المدينية، مثل فاس، والرباط، وسـلا، فيما يخص النسق الفرنسي، وتطوان وطنجة في الشمال، فيما يخص النسق الثقافي الإسباني.

يمكـن القـول إنـه منذ أواخـر العشـرينيات وأوائـل الثلاثينيـات من القرن العشـرين، بدأت تظهر فئـة مـن الشـباب المدينـي الـذي أخـذ يتجـاوب مع النسـق الثقافـي الأوروبـي بعدمـا أخـذت المـدارس الابتدائية والثانوية في مدن مثل فاس والرباط وسلا وغيرهـا تخـرّج تلاميذ نهلوا مـن الثقافة الفرنسـية، وبـدأوا يلتحقـون بالجامعـات الفرنسـية، منذ أواخر العشـرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن العشـرين. وسـتتزامن هـذه المرحلة مـع ما يعرف عنـد مؤرخي الحمايـة فـي المغرب، بالمرحلـة الثقافيـة والوطنية، بعـد مرحلة تأسـيس البنيـات الاسـتعمارية من طرف لويـس هوبيـر ليوطـيLouis Hubert Lyautey 1925-1912))، ثـم المقيميـن العامين: تيدور سـتيج Théodore Steeg (1925-1929)، ولوسـيان سـان Lucien Saint (1929-1933). وتأتـي هـذه المرحلة قبـل مرحلة تآكل الحماية منـذ أواخر الأربعينيات من القـرن العشـرين.(2) وسـتعرف هذه المرحلـة الثانية من الحماية، أوائـل الثلاثينيات وأواخر الأربعينيات، حـراكاً ثقافياً وسياسـياً، سـيكون له تأثيـر كبير على عبـد اللـه كنون وجيله مـن المثقفيـن المغاربة، وعلى كتاباته الفكرية والتاريخية والأدبية.

كان المغرب يعرف في الثلاثينيات عدة أنسـاق ثقافية وليدة اختراق النسق المغربي القديم بالنسق الأوروبي الـذي فرضته الحماية الفرنسـية والإسـبانية. وهكذا بدأنـا نميـز بين النسـق التقليـدي والنسـق الحديث الأوروبـي، واختـلاف التفاعـل مع النسـقين من طرف المغاربة وبخاصة الشبيبة المتمدرسة في النسقين.

ولمـا كان المغـرب قـد خضـع للحماية الفرنسـية في المنطقة السـلطانية، وللحماية الإسبانية في المنطقة الخليفية في الشـمال، فإن الحماية الإسبانية قد وفرت للمنطقـة الشـمالية بعـض الحظوظ لترسـخ النسـق المغربـي العربـي التقليـدي أكثـر منـه فـي المنطقـة الفرنسـية. ذلـك أن الشـمال قـد أتيـح لـه أن يتصـل بالثقافـة المشـرقية مبكـراً، ويربـط علاقـات ثقافيـة وفكريـة بالمشـرق من خلال البعثـات العلمية المبكرة في العشـرينيات إلى نابلس بفلسـطين، وإلى القاهرة بمصر. ولعل هذا الوسط الثقافي والفكري في الشمال هو الذي سيسـاعد عبد الله كنون علـى تمثل الثقافة

العربية المشرقية والثقافة العربية المغربية القديمة والحديثة.

نسق الثقافة الوطنية

كان النسق المغربي- المشرقي بحكم الروابط التاريخية والدينية واللغوية هو النسق السائد في المغرب قبل أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن العشرين. ولما بدأت المدرسة المغربية الفرنسية -التعليم الفرنسي الإسلامي- تُخرِّج المتعلمين فيها والمتفاعلين مع ثقافة الأوروبي الفرنسي والإسباني بدرجة أو أخرى، فإن النسق الثقافي المغربي سيعرف نسقاً جديداً سيحاول أن يدبره بطريقة أو أخرى، وبخاصة عند الفئة المدينية التي حظيت بنصيب من تلك الثقافة الأوروبية. ومع ذلك، فهذه الفئة الأولى التي درست الثقافة الفرنسية مثلاً، كانت مشبعة بالثقافة المغربية، ومرتبطة بالثقافة العربية بطريقة أو أخرى. ولم يكن هناك انفصام تام وقطعي مع النسق المغربي العربي. بدليل أن الشبيبة المغربية في أواخر العشرينيات كانت تتردد على المشرق وعلى معاهده العلمية قبل أن تنتقل إلى فرنسا، مثل عبد الخالق الطريس، والمكي الناصري، وأحمد بلافريج. ويمكن الرجوع إلى الأنشطة الثقافية لـ« جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين» (1927) بباريس، منذ بداية الثلاثينيات، لنرى مدى اهتمام الشبيبة المغاربية بثقافتها الوطنية وبالثقافة القومية من خلال المحاضرات والمسامرات الفكرية والتاريخية والفنية التي كانت تنظمها الجمعية، والمرتبطة بالتراث المغاربي العربي الإسلامي[3].

تدبير الثقافة الوطنية: المغرب بين الثقافة المشرقية والأوروبية

رغم العلاقة التاريخية والدينية واللغوية بين المشرق والمغرب، فإن المغاربة هم الذين كانوا يحجون إلى المشرق ويذهبون بكثرة إلى المؤسسات العلمية المشرقية في الشام ومصر بخاصة. ورغم الزخم الحضاري في الغرب الإسلامي الأندلسي والمغربي، لم يحظ المغاربة في تاريخهم وثقافتهم وآدابهم بحظوة كبيرة عند المشارقة حسب السرد التاريخي المغربي لذلك. وهذه قصة قديمة معروفة، تعرض لها الكتاب المغاربة القدامى والجدد. وربما كان لعدم تثمين الإنتاج الثقافي والفكري المغربي وَقْع، ربما أقوى من غيره، في تساؤل الجيل الجديد-الثاني- منذ العشرينيات عن سر عدم التعامل بالمثل مع ثقافة وحضارة المغرب التي هي من جنس الثقافة العربية وحضارتها عامة. ويكفي أن نعود إلى كتابات المثقفين المغاربة والجزائريين والتونسيين في مجلة (المغرب) Maghreb (1932-1934)، التي كانت تصدر في باريس، والتي كانت تناصر القضية الوطنية المغربية، لنتأكد من تلك الروح الوطنية.

وسيتولد شعور آخر جديد لدى النخبة المثقفة المغربية التي بدأت تنفتح على الثقافة الأوروبية، بروح مغربية مشبعة بالقيم المغربية العربية، ومشبعة بالتطلع إلى الانفتاح على العوالم الأوروبية الجديدة التي فرضتها الحماية الفرنسية والإسبانية، بما تحمله من تصورات إنسانية تحررية وديموقراطية وإنسانية، ومن خلال تجاربها التاريخية في صراعاتها مع الظلم والاستعباد. سيكون لهذا الوعي المتولد من قلب ثقافة الحماية، التي تحمل في قلبها نقيضها المثالي والإنساني، ما يدفع الجيل الجديد إلى تطوير خطابه وتوجيهه نحو الأفق الإنساني التحرري، ومواجهة المستعمر بثقافته وقيمه التي تناقض ممارساته الاستعمارية والاستعبادية واغتصاب الأرض وهضم الحقوق الوطنية.

لم تهتم الحماية كذلك بالثقافة المغربية في أبعادها التاريخية والحضارية، وفي علاقاتها العريقة والقوية مع المشرق في تجلياتها الدينية والتاريخية واللغوية. وإنما كان اهتمام المستعمر أكثر بالفضاء المغربي وبممكناته المادية دون ممكناتها البشرية والرمزية والتاريخية والحضارية. كما أن المستشرقين الذين واكبوا الاستعمار في المغرب قد اهتموا أكثر بالبعد التاريخي و الاجتماعي والأنتربولوجي والإثنولوجي للمغرب، رغم أهمية ذلك، ولم يقوموا بمثل ما قام به المستشرقون الأوروبيون في المشرق العربي، من حيث البحث في التراث العربي المغربي الذي ربط المغرب بالمشرق والأندلس. ويكفي أن نقارن بين دور المستشرقين الذين استصحبهم نابليون معه في حملته على مصر 1801-1798، والذين جاؤوا بعدهم في القرن التاسع عشر، وعند تأسيس جامعة القاهرة سنة 1908، فيما يخص الكشف عن التراث العربي،

من حيث التحقيق والدراسة، ودور الذين واكبوا الحماية الفرنسية في المغرب، لنرى كيف كانت تتصور الحماية المغرب وثقافته وحضارته البعيدة عن الحضارة العربية وثقافتها.

ولعل هذا الشعور بالغبن فيما يخص هوية المغربي الغنية، والمختزلة من طرف المشارقة، ومن طرف المستعمر الأوربي، ومن طرف المستشرقين في المشرق والمغرب، هو الذي سيدفع نخبة من الشباب في أواخر العشرينيات وبدايات الثلاثينيات من القرن العشرين إلى التفكير في البحث في المظان الفكرية والأدبية والثقافية المغربية العربية القديمة والحديثة، إسوة بالمشارقة، ورد الاعتبار للهوية الوطنية المغربية وثقافتها العربية الإسلامية. وسيكون عبد الله كنون أحد من سيجيب عن تلك الوضعية المجحفة للثقافة المغربية. وبخاصة في كتابه «النبوغ المغربي في الأدب العربي».

بدايات الاهتمام بالثقافة الوطنية الحديثة

كان للثقافة المشرقية التي كانت تصل إلى المغرب عبر المنابر الإعلامية الجديدة، مثل الصحافة، والمجلات، والدوريات، وظهور الثقافة الإعلامية في المغرب مع بدايات القرن العشرين، ومن خلال بعض الرحلات العلمية للمغاربة في الشمال وفي الجنوب المغربي، ومع ما خلفته الثقافة الأوروبية الجديدة، رغم قلتها في العشرينيات؛ كان لهذا الإحساس بالضغط على الثقافة المغربية المختفية خلف البعد المشرقي والبعد الأوروبي، ما دفع النخبة المغربية للتساؤل عن ثقافتها ووجودها، ووضعها الباهت حتى لدى المغربي. كانت هذه التساؤلات تطرح بأشكال مختلفة. و قدمت حولها بعض الأجوبة الممكنة والمتاحة. من ذلك اللجوء إلى جمع التراث الأدبي والثقافي المغربي في بعض المدن، مثل فاس والرباط وسلا وغيرها، على النموذج المشرقي، مثل: «تاريخ الشعر والشعراء بفاس»، لأحمد النميشي(1924)، و«مسامرة أدبية»، لعبد الله القباج، (1928)، و«فواصل الجمان في أنباء وزراء كتاب زمان»، لمحمد غريط، (1928)، و«الأدب العربي في المغرب الأقصى»، لمحمد بن العباس القباج (1928).

كان السؤال الذي يطرحه الأدباء والمثقفون المغاربة في ذلك الوقت هو: هل هناك من يؤلف كتاباً مثل كتاب جورجي زيدان «تاريخ آداب اللغة العربية» (1911)، حول تاريخ الأدب المغربي؟ ذلك أن جورجي زيدان لم يذكر في كتابه شيئاً عن الأدب المغربي وتراثه الفكري والحضاري. كما أن المستشرقين قد اهتموا كثيراً بالتراث الحضاري العربي في المشرق، من تحقيق للمخطوطات وتقديم دراسات مختلفة، ولم يهتموا كثيراً بالتراث الفكري والأدبي والحضاري المغربي، سواء بالتحقيق أو الدراسة. وقد تجلى ذلك الإهمال في مؤلفات المستشرقين المعروفين مثل كارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي» (1898). وحتى أولئك لمستشرقين الذين قدموا إلى المغرب مع الحماية لم يهتموا كثيراً بتحقيق التراث المغربي القديم، وبالمخطوطات المغربية العربية التي يزخر بها التراث المغربي كثيراً، وإن كان لهم فضل كبير في الاهتمام بمختلف المظاهر المغربية التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والفنية واللسانية وغير ذلك.

ولنتبين الروح السائدة لدى المثقفين المغاربة في العشرينيات والثلاثينيات ننقل هنا بعض الآراء الدالة على ذلك. يقول أحمد النميشي في كتابه تاريخ الشعر والشعراء بفاس: «وقد وضعت اللبنة الأولى في أساس تاريخ الشعر، فعسى أن يأتي من هو أغزر منه مادة وأكثر اطلاعاً فيشيد صرحه الشامخ. وذلك على هِمّة من يُقدر خدمة وطنه حق قدرها بعزيز».(4) ويقول محمد بن العباس القباج في مقدمة كتابه، الأدب العربي في المغرب الأقصى، معبراً عن شعوره نحو ما ينجز في الأقطار العربية من النشاط الأدبي والفكري وعدم مجاراة المغرب الأقصى لتلك الإنجازات، ويتساءل قائلاً: «ولكن لما كانت منا التفاتة إلى قطرنا المغربي الذي هو جزء من أجزاء الأمة العربية، ونظرنا هل له مثل هذه السمعة الأدبية والشهرة العالية، وهل أوتي أدباؤه وشعراؤه ذكراً يرفع مقامهم ويطير بشهرتهم، ألفينا من خمول الذكر ما لا ترضى به أمة تنشد الحياة وتؤمل أن يكون لها مركز في الوجود»[5] ويجيب القباج عن هذا السؤال بوضع كتابه عن الأدب العربي في المغرب الأقصى. ويقول كذلك عن الحاجة إلى الفكر النقدي في المغرب: « ولنا رجاء أن يقوم كتابنا من يرى في نفسه أهلية واستعداداً لذلك الانتقاد، فيكون قد أفادنا كثيراً وخدم أدب قوم وصدح دون

خشية أو ريبة، لا سيما ونحن في الطور الأول من الانتباه والنهوض، وقد أصبحنا نشعر بحاجة ماسة وشدة افتقار إلى النقد الأدبي لنتبين مواطن الضعف وموضع الخلل في أدبنا وتفكيرنا فنشرع لإصلاحه وتقويمه».[(6)]

سيلتقط عبد الله كنون مثل هذه التساؤلات، وسيسعى للإجابة عنها وعن تأصيل الثقافة المغربية في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، بحكم ظروفه في شمال المغرب، وبحكم تكوينه العصامي الذي نهل من مختلف المعارف العربية الإسلامية، وبفضل أسرته التي وفرت له ظروف التعلم والمعرفة. وسيسعى منذ بدايات الثلاثينيات إلى جمع المادة التاريخية الفكرية والثقافية والأدبية التي سيبني عليها كتابه النبوغ المغربي في الأدب العربي.

النبوغ المغربي وروح عصر المرحلة الثقافية في مغرب الثلاثينيات

إن الذي يهمنا من كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي (1938) لعبد الله كنون، هو بعده الثقافي والمغربي العربي الإسلامي. ذلك أن عقد العشرينيات الذي عرف إرهاصات الانتباه والنهوض، على حد تعبير القباج من قبل، وأن الحماية الفرنسية قد أرست دولتها الاستعمارية الحديثة إلى جانب دولة المخزن القديمة. ولكنها أهملت مغرب الحضارة والثقافة العربية الإسلامية التي كانت أصداء النهضة العربية والجامعة الإسلامية في المشرق تصل إلى المغرب عبر مختلف الوسائل؛ من كتب ومجلات وجرائد ورحلات حجية وعلمية وغيرها؛ ذلك أن العلاقة بين المغرب والمشرق قديمة، وكان المشرق يمثل نموذجاً معيناً للمغاربة بحكم الروابط الدينية والثقافية واللغوية.

لا بد من استحضار السياق التاريخي للمرحلة التي ألف فيها كنون كتابه، وكتاباته الأخرى المعززة له كذلك. استحضار وضع الحماية في مرحلة الثلاثينيات والأربعينيات، ووضع الحركة الوطنية السياسية المغربية التي بدأت تعبر عن مطالبها الإصلاحية، بل السياسية، وتُشكّل الأحزاب، وتدخل في مرحلة الصراع السياسي والثقافي مع المستعمر الفرنسي، وظهور نخبة مغربية متعلمة في المشرق وأوروبا والمغرب، تقود الصراع من أجل إثبات الهوية الثقافية المغربية والتطلع إلى التحرر والاستقلال، وكذلك الظروف الدولية التي ولدتها الحرب العالمية الثانية وما بعدها. ولا ننسى ما خلفه الظهير البربري(16 ماي 1930) في نفوس النخبة المغربية، وكذلك المد القومي والجامعة الإسلامية في المشرق، والانفتاح على الفعاليات المشرقية القومية التي كانت تتردد على المغرب، مثل شكيب أرسلان، وبخاصة في المنطقة الخليفية بالشمال. كل هذه العوامل سيكون لها تأثير في كتابة النبوغ المغربي لعبد الله كنون. وقد ذكر بعضها في مقدمة كتابه، وبخاصة تلك التي تهم عدم العناية بالتراث الثقافي والفكري والأدبي المغربي من طرف المشارقة، والمستشرقين.

يبدو أن عبد الله كنون قد شعر بعدم الاهتمام بدولة الثقافة المغربية العربية الإسلامية، وأن دور المؤرخ الأدبي هو القيام بتأثيث دولة السياسة والاقتصاد بالممتلكات الرمزية الأدبية والفنية واللغوية التي يختزنها تاريخ المغرب وتزخر به حضارته. وبهذا يسعى عبد الله كنون إلى إقامة دعائم وطنية بنوع من الكفاح الثقافي الذي ذكرناه من قبل.

فما هي دعائم الثقافة الوطنية التي تَمَثّلها عبد الله كنون في كتابه النبوغ المغربي؟

يمكن القول إن الروح التي كتب بها عبد الله كنون كتابه، هي روح دفاعية، مشوبة بالشعور بالغبن التاريخي الذي طال الثقافة المغربية العربية الإسلامية، من طرف الحماية والمشارقة والمستشرقين، وتهاون المغاربة.

لقد حدد في مقدمة كتابه الدوافع التي دفعته إلى وضع كتابه النبوغ المغربي، والمتمثلة فيما يلي:

- أن الصورة التي كونها الآخر-المشرقي والأوروبي- عن المغرب هي صورة محملة ببطولات الجهاد والفتوحات، وتدعيم نشر الإسلام في الغرب الإسلامي وفي السودان، وتم التغاضي عن الجانب الفكري والسياسي والثقافي والحضاري للمغرب، ومساهمة المفكرين والأدباء المغاربة في إثراء التراث الفكري والثقافي العربي الإسلامي.

- لم يقصد عبد الله كنون إلى تمييز الأدب المغربي وتراثه الفكري والثقافي عن التراث الفكري والأدب العربي العام. وإنما أراد إبراز الرصيد الثقافي

والأدبي العربي الذي ساهم به المغرب في بناء صرح الأدب العربي العام وإغناء ثقافته.

- إدخال التراث المغربي الأدبي والثقافي والفكري في المنظومة الثقافية العربية والإسلامية.

- عدم اهتمام المغاربة بتراثهم الأدبي والفكري والثقافي العربي وإهمالهم لماضيهم وحاضرهم حتى أوقعوا الغير في الجهل بهم والتقول عليهم.

- تقديم الأدب المغربي للدوائر العلمية والعربية كفيل بإزالة حجاب الخفاء على كثير من الحياة الفكرية لأهل المغرب. وبذلك سينقضي تجني المشارقة على التراث الأدبي والفكري المغربي، علماً أن ذلك لم يكن عن عمد أو سوء قصد، وإنما عن جهل أو تجاهل. [7] ولم يجانب الصواب من اعتبر أن بطل كتاب النبوغ المغربي هو اللغة العربية والثقافة المغربية العربية الإسلامية.

لقد حاول عبد الله كنون أن يرسم للأدب المغربي وتاريخه وثقافته صورة متكاملة من البدايات العربية الإسلامية حتى العصر العلوي، وتحدث عن مختلف دوله وعصور المغرب السياسية والفكرية والأدبية، وجمع كل ما توصل إليه من نصوص شعرية ونثرية تثبت أهمية إنتاج المغاربة الفكرية والثقافية والأدبية. وإن كان البعد الكمي يطغى في الكتاب على البعد النوعي أو الفني، فإن ذلك لم يقلل من قيمة الكتاب ومن أهميته في وقته وإلى الآن.

لقد خلف هذا الكتاب ردود أفعال قوية ومختلفة سواء عند المغاربة أو المشارقة أو عند المستشرقين أو عند الحماية الفرنسية التي ستلجأ إلى منع تداوله في المنطقة السلطانية. وقد طبع هذا الكتاب سنة 1938، بمطبعة المهدية بتطوان في جزأين، وإن كان الكتاب قد تمت تهيئته قبل ذلك. ثم طبع الكتاب مرتين في ثلاثة أجزاء؛ في سنة 1961، وأدخل عليه المؤلف تصحيحات كثيرة، وكذلك فعل في الطبعة الثالثة في سنة 1975.

لماذا منعت سلطات الحماية الفرنسية كتاب النبوغ المغربي؟

يشير أمر منع كتاب النبوغ الصادر بالجريدة الرسمية سنة 1938، إلى ما يلي:

« وحيث إن التأليف المسمى «النبوغ المغربي في الأدب العربي» الصادر باللغة العربية بتطوان، من شأنه أن يبقي التشويش أو يحث عليه، وبغيبة الجنرال القائد الأعلى، أمرنا بما يلي:

أن التأليف المسمى النبوغ المغربي في الأدب العربي» يمنع إدخاله إلى المنطقة الفرنسوية بالأيالة الشريفة، وكذلك عرضه في المحلات العمومية وتعليقه وبيعه وعرضه للبيع وتوزيعه». [8]

كان كتاب النبوغ المغربي، إذن، يشوش على السياسة الفرنسية الاستعمارية ويحرض على مواجهتها. وبذلك يتبين مدى أهمية الصراع الثقافي والفكري مع الحماية التي أزعجها أن يكشف صاحب النبوغ المغربي عن البعد التاريخي والحضاري العربي الإسلامي للمغرب، الذي كانت تحاول فرنسا أن تتجاهله، ولا تركز إلا على ما يمكن أن يعزل المغرب عن الحضارة العربية الإسلامية.

لم يكن هذا الكتاب هو الذي تعرض وحده للمنع من طرف الحماية الفرنسية، بل إن سياسة المنع للمنشورات والمطبوعات والكتب كان أمراً معمولاً به منذ نهايات حكم ليوطي في 1925. ولكن المنع قد تزايد في الثلاثينيات بشكل كبير واستمرت حتى نهاية الحماية. وكان المنع يشمل المطبوعات والمنشورات العربية والفرنسية والإسبانية والألمانية وغيرها التي كانت ترى فيها الحماية ما قد يساهم في إذكاء وعي المغاربة، سواء فيما يتعلق بالروح العربية القومية النهضوية، أو الروح الإسلامية التحررية، أو الروح التحررية الإنسانية بصفة عامة. ويمكن تفسير كثرة المنع للمطبوعات والمنشورات في الثلاثينيات بكونها مرحلة ثقافية عرفت ظهور النخبة المثقفة والسياسية التي كانت لها علاقات فكرية وثقافية وسياسية مع المشرق ومع أوروبا. وبهذا يدخل كتاب النبوغ المغربي لعبد الله كنون في هذه المرحلة من تاريخ الحركة الوطنية المغربية في عهد الحماية في نوع من النضال الثقافي الذي يعزز النضال السياسي، وبالأخص حماية الهوية الوطنية والثقافة الوطنية. وكانت تتلخص في الحفاظ على الوحدة الوطنية من خلال الثقافة الوطنية العربية الإسلامية التي ستلعب دوراً هاماً في توحيد المغاربة والمغاربيين من أجل الدفاع عن حريتهم واستقلالهم.

ولعل الكتب التاريخية والدينية الكثيرة التي كتبها عبد الله كنون بعد النبوغ هي التي كانت تفصل

وتدقق فيما أجمله في النبوغ. فعندما يتحدث عن أعلام المغرب وعن تواريخ بعض الدول المغربية وعن تحقيقه لبعض الدواوين أو عن حديثه عن شاعر أو أديب أو فقيه مغربي، فإنما ليزكي بذلك غنى الإنتاج المغربي ومساهمته الفعالة في إثراء التراث العربي الإسلامي ككل.

الخلاصة

لقد حاولنا في هذا العرض أن نبين المسار الثقافي الذي عرفه مغرب العشرينيات والثلاثينيات بخاصة؛ مسار يلتقط بعض المؤشرات الثقافية التي دفعت بالنخبة المغربية في ذلك الوقت لتفكر بشكل جلي في الوضعية الثقافية المغربية، بالمقارنة مع المشرق، من جهة، وبالكشف عن التراث الفكري والثقافي والأدبي المغربي الذي تم تجاهله من أهله أولاً، ومن طرف المشارقة، ثم من طرف المستشرقين، وبخاصة من طرف الحماية الفرنسية. وقد لعب هذ الوعي دوراً أساسياً في توجيه عمل العلامة عبد الله كنون في منتصف الثلاثينيات لتأليف كتابه الأساس النبوغ المغربي، ومؤلفاته الأخرى المعززة له. كما أن مرحلة الثلاثينيات التي ألف فيها كنون كتابه النبوغ كانت مرحلة ثقافية وسياسية هامة في مسار الحركة الوطنية في عهد الحماية. كما أنها عرفت تداخل مختلف النخب المغربية المشبعة بالثقافة المغربية العربية المشرقية وبالثقافة الأوروبية المتنورة، وسعيها نحو بث روح الوحدة والسعي نحو التحرر والاستقلال. كان عبد الله كنون بكتابه، إذن، لبنة أساسية في خلق الوعي بالهوية المغربية وبالثقافة المغربية المتجذرة في التاريخ وفي العروبة والإسلام. وذلك ما كانت الحماية تحاول تجاهله وإخفاءه، رغم اهتمامه بالبعد التقليدي المغربي العتيق الذي لا يمكن للمغربي أن يتحرر به من نفسه ومن الآخر المستعمر.

الهوامش

1- Robert Escarpit, Histoire de l'Histoire de la Littérature: Histoire des Littératures, Coll. La pléiade, T. III. Paris, Gallimard, 1963, p. 1770.

2- Daniel Rivet, Histoire du Maroc, Fayard, 2012, pp. 303-349.

3 –يمكن الرجوع إلى رسالة علمية حول «جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية: 1927–1954»، لخضر عواريب، جامعة الجزائر 2007–2006. وهي رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ.

4 –أحمد النميشي، تاريخ الشعر والشعراء، مطبعة أندريه، فاس، 1924، ص. 40. والنميشي من بيت النميشيين من أهل معسكر بالجزائر، من بيوتات المهاجرين الجزائريين بفاس بعد 1844. محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب ما بين 1830و1962: مساهمة في تاريخ المغرب الكبير المعاصر، دار أبي رقراق، الرباط، 2008، ص. 47.

5 –محمد بن العباس القباج، الأدب العربي في المغرب الأقصى، 1929، المقدمة، ص. ب.

6 –نفسه، المقدمة، ص. ه.

7 –كتاب «النبوغ المغربي في الأدب العربي» لعبد الله كنون، طبعة دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، بيروت، 1961، ص. 2–8.

8 –الجريدة الرسمية، عدد 1347، بتاريخ 19 غشت 1938. ونورد هنا نفس النص بالفرنسية فيما يلي:
Bulletin officiel, n. 1347 du 19 août 1938, p. 1129:
«Considérant que l'ouvrage ayant pour le titre ''Al-Noubourh Al-Maghrabi Fi-l-Adab Al'Arabi'', publié en langue arabe à Tétouan, est de nature à entretenir ou à exciter le désordre:
En l'absence du général commandant en chef:
ORDONANS CE QUI SUIT:
L'introduction, l'affichage, l'exposition dans les lieux publics, la vente, la mise en vente et la distribution de l'ouvrage intitulé ''Al-Noubourh Al-Maghrabi Fi-l-Adab Al'arabi'' sont interdits dans la zone française de l'empire chérifien''.